الطوفان

في المصادر

السومرية ، البابلية ، الآشورية ، والعبرانية

دراسة نقدية

بقلم : المرحوم السيد فؤاد جميل

تمهيد :

لا جرم ان ثمة كارثة ساحقة ماحقة ، من كوارث الفيضان الذي كانت بلاد ما بين النهرين تتعرض له ، عبر التأريخ من دون ان يستطيع سكانه يومذاك السيطرة عليها ، وهي الاصل في [قصة الطوفان] ، على ما وردت على لسان (اوتا ـ نبشتم) ، وهو يقص حديثه على (كلكامش) بطل « الملحمة السومرية العظيمة الخالدة » التي يصح وضعها في مصاف الملاحم العالمية العظيمة الخوالد .

لقد تنوقلت (قصة الطوفان) هذه عن الاصل السومري ، وتلقّحت باساطير الامم التي جاءت بعد السومريين ، متنقلة في ارحام الدهر . لقد اقتبسها البابليون ـ الساميون فكانت لديهم نسخة كاملة منها في نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م ، شأنهم كشأن الحيثيين في بلاد الاناضول ، بعدهم بمئين من السنين قليلة . وعاود صياغتها الكتّاب الآشوريون ، ثم كان لها صدى مدوّ في (سفر التكوين : ٦ـ٩) . وقصة الطوفان ، على ماوردت في هذا (السفْر) تتفقّ مع (قصة الطوفان البابلية) ، وعدد من قصص مشابهة ، كانت شائعة ذائعة في بلاد مابين النهرين في الالف الثاني قبل الميلاد وذلك في الجوهر ، وان اختلفت في بعض التفصيلات ، وثمة ملاحظة نوردها لانها تتسق في هذا الباب ، هي : ان « روح نهر الفرات » كانت ترد في أساطير البابليين ،

ولعلها في أساطير السومريين أيضا ، باسم (روح الارض) أو (روح المكان) ويتخيل شكلها على هيأة سمكة ، وان نماءها في هذا النهر يعلل ما يحدثه من طوفان ، ذلك ان النهر يضيق بالسمكة على سعته • كما تقع في كثير من الاساطير الاخرى على تعليلات غير هذه في باب حدوث الفيضانات العظيمة ، منها انه لا معدى ان يكون ثمة وحش ، عظيم الجرم ، قد لجأ الى البحر أو البحيرة أو النهر فضاقت جوانبه بمائه فتبطح واحدث الطوفان[١] •

وشغلت اذهان المنقبين ـ الاثاريين بقصة الطوفان ، على ما وردت في (سفر التكوين) وكان ان وجد (السير لينارد وولي) الذي نقب في اور طبقة من صلصال ، خلّفها ماء منحسر ، وارجعها الى ما قبل ٤٠٠٠ سنة ، وقال عنها في كتابه الموسوم (اور الكلدان ١٩٢٩) ان هذه الطبقة هي أثارة (الطوفان) ، وما كان هذا عالميا ، وانما هو كارثة محلية حصرت بوادي دجلة والفرات الاسفل ، ولعله شمل منطقة طولها ٤٠٠ ميل وعرضها ١٠٠ ميل ، وحسبها سكان هذه البلاد ، بسبب من نظرتهم التي لم تكن تجاوز بلادهم « طوفانا عالميا » شمل الدنيا كلها •

ولما كان لاكتشاف هذه الطبقة خطر ومساس بموضوع (الطوفان) مباشرة ، فنحن نورد حديثها تفصيلا ، على ما يقصه سر لينارد وولي نفسه[٢] ، قال :

« كان التنقيب في (المقبرة الملوكية) في اور يوشك ان ينتهي ، ومما كان لدي من دليل عتيد ، كنت على يقين من ان هذه (المقبرة) ترجع الى زمن سابق لعهد سلالة اور الاولى • ذلك ان الكنوز المستخرجة من قبورها تصور حضارة من طبقة رائعة • لذا كان من الاهمية بمكان اقتفاء الخطوات التي خطاها الانسان ليبلغ ذلكم المستوى من مهارة الصنعة ورفعة الثقافة • ان هذا يفرض علينا التعمق في النبش والتنقيب ، وكان من الافضل ان نبدأ ذلك ، على مقياس صغير ، في المستويات الدنيا ، وان يتم بأقصر وقت وأقل كلفة •

لذلك بدأنا من تحت مستوى القبور التي عثر عليها ، وأخذنا بدق اسفين صغير اخترق التربة التحتانية ، خلل الفضلات المزيجة التي تميز المستوطنات السكنية العتيقة • انها خليط من لبن لتفتت ، ورماد ، وكسارة فخار ، وهي على غرار أرض القبور التي جرى حفرها • واستدام النبش حتى عمق ثلاث اقدام ، وعلى حين غرة انعدم كل شيء من هذا القبيل بالمرة • لم يبق الا طين ركد عن ماء وتخلف • وقال لي العربي الذي يعمل على دق الاسفين انه بلغ « التربة البكر » اذ ليس هناك من شيء يظهر ، وان من الافضل ، بنظره ، الانتقال الى مكان آخر • وكان ان نزلت الى (الحفرة) ونظرت فيها فاتفقت معه ، لكنني قست المستويات فوجدت ان (التربة البكر) المزعومة ليست بعميقة جدا ، على ما كنت آمل • ذلك اني كنت اذهب الى ان (اور) الاصلية ليست مبنية فوق تل ، بل على نشز من الارض خفيض ، لا يعلو على ما يحيط

(١) Myths of Babylonia — Mackenzy,

(٢) Excavations at Ur, p. 29 and after.

به من الهـور الا بقليل • ولما كنت لا أود ان تنقلب نظرياتي رأسا على عقب ، الا ببرهان بيّن قاطع ، لذلك طلبت من الرجل ان يعاود الحفر • وقام بذلك ، وهو اشد ما يكون كرها له • ولم يستخرج الا التربة الخالصـة التي لا تدل على وجود أي نشاط بشري • وبعد ان حفر لمسافة ٨ أقدام ، ظهرت ، على حين غرة ، أدوات من حجـر الصوان ، وكسارة آنية من فخـار ، مصبوغة ، ترجع الى (دور العبيد)[٣] • ونزلت الى الحفرة مرة ثانية ، وفحصت جوانبها مليا ، وشرعت بتدوين ملاحظاتي عنها ، وانا على يقين من دلالتها جميعا ، لكنني ، في الوقت نفسه كنت اصبو الى الوقوف على آراء غيري ، اتراهم يصلون الى النتيجـة نفسـها ؟ وهكـذا جئت باثنين من الموظفين ، وبعد ان بينت لهما الحقائق سألتهما : كيف تفسرانها ؟ لكنهما كانا غـير قادرين على تفسيرها !

وجاءت (زوجي) ونظرت في الحفـرة ، وسُئلت السؤال نفسه ، وهنـا استدارت اليّ وقالت : « حسنا ! طبيعي ان يكون هـذا موقع الطوفان ذاته ! » •

وكان هو الجواب الصحيح حقا !

لكن ، ليس في مقدور انسان ان يرتكن الى حفرة مساحتها ياردة واحدة في تحقيق (موقع الطوفان) • لذلك ، ما ان حـل موسم التنقيب التالي الا اشرت على الارض الخفيضة ، حيث كانت المقبرة الملوكية (وهي على شكل مستطيل مساحته نحو ٧٥ × ٦٠ من الاقدام المربعـة) ، فحفرنا حفرة وسيعة ونزلنا الى مستوى ٦٤ من الاقدام • وما ان عاودنا الحفر الا بلغنا أخربة بيوت • ان جدرانها بُنيت من لبن ، وهي بيوت مستطيلة الشكل في الاسفل ، مدورة في الاعلى ، بدلا من ان تكون مسطحة • وكنا قد عثرنا على نظائر لها في (معبد السلالة الاولى) ، في (تل العبيد) ، وفي المقبرة الملوكية • وكانت الفخاريات التي عثر عليها في الغرفة من هذا النوع الذائع الشائع في القبور العالية • وعثر ، تحت الاخربة ، على طبقة ثانية من البيوت ، فثالثة • وفي الـ ٢٠ قدما الاولى ، نبشنا ما لا يقل عن ٨ طبقات من طبقـات البيوت ، كل طبقة بنيت على طبقـة من اخربة بيوت العهد السابق لعهدها • وعلى حين غرة انعدم أي اثر لأخربة البيوت ، وغدونا نحفر في كدس متراص من كسارة الفخـار نزلا ، واستمر ذلك لنحو ١٨ قدما • انه موقع (معمل الاواني) ، وهذه الكسارة هي التالف ممـا كان يصنعه ولا قيمة تجارية له • ان الـ ١٨ قدما من كسارة الفخاريات لتدل على ان المعمل دأب على العمل أمدا طويلا • ومن المخلفات يستبان التغير الذي طرأ على الطرز ، خلال تلكم المدة •

واثر طبقة غير سميكة انعدم الفخار بالمرة ووصـلنا الى طبقـة خالصة من صلصال خلفـه (الطوفان) • لقد نبش عن بعض القبور في هذه الطبقة ، وكان فيها فخار من انفس انواع فخار (دور العبيد) • وتحت طبقـة الصلصال هـذه مستوى سكن الانسان ، فيه لبن متفسخ متفتت ورماد وكسار آنية •

---

(٣) اقدم عهود فجر الحضـارة في جنـوبي العراق ، ونسترجح نحن وغيرنا ان تاريخه يرجع الى حدود ٤٥٠٠ ق•م ، ومثل هذا التاريخ يرتكن الى طريقة الاشعاع الكربوني C14 لطبيعة الحال •

ان البيوت التي كانت قبل عهد (الطوفان) تشبه أكواخ سكان الاهوار اليوم .

وسنعود الى تمحيص « ما اكتشفه » وولي بعد هذا .

٢ ـ مدن ما قبل الطوفان وملوكها :

ويلحظ ان ترسبات « الصلصال » التي سلف القول عليها تفصل بين (دورين) مهمين من ادوار (تأريخ العراق القديم) واعني بهما : (دور جمـــدة نصـــر)[٤] و (دور فجـــر السلالات)[٥] ، وذلك بقدر تعلق الامر ببعض مدن العـــراق العتيقة من امثـــال : (كيش) و (الوركاء)[٦] و (شروباك)[٧] . ولقد ورد ذكر (الطوفان) في « مسارد » الملوك السومريين ، اذ رتبوا فيها على أساس من عاش منهم (قبل الطوفان) ومن عاش منهـم (بعد الطوفان) ، واليك (مسردا) يبين مدن العراق التي وجدت قبل الطوفان وأسماء ملوكها مقرونة بالسنة على ما ورد في احدى هذه (المسارد) . انه مسرد تتقاذفه الريب ، وانه اقرب الى الاساطير . كما يلحظ ان (الملوك) الذين جاؤوا بعد الطوفان لم يخل امرهم من شائبة الاساطير أيضا اذ عزى الى كل منهم انه حكم بمعدل (الف سنة) ، لكن (سلالة اور الاولى) نجت من امثـال هـــذه المبالغات .

الاســـم	المدينة	السنة
أ ـ لو ـ لم	ننن كي	٢٨٠٠٠
أ ـ لا ـ كار	ننن كي	٣٦٠٠٠
ان ـ مي ـ ان ـ لو ـ آن ـ نا	باد تابيرا	٤٣٠٠٠
ان ـ مي ـ ان ـ كال ـ آن ـ نا	بادتابيرا	٢٨٨٠٠
دموز (الراعي)	باد تابيرا	٣٦٠٠٠
ان ـ سب ـ زي ـ آن ـ نا	لاراك	٢٨٨٠٠
ان ـ مي ـ ان ـ دور ـ آن ـ نا	سبار[٨]	٢١٠٠٠
(؟) جي ـ د	شروباك	١٨٦٠٠

والقائمة[٩] بسنيها مثل على اختلاط التأريخ القديم بالاساطير[١٠] ، وهو امر ملحوظ بالنسبة

---

(٤) « (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م» واطلق عليه هذا الاسم نسبة الى تل صغير معروف بهذا الاسم ، كائن قرب مدينة كيش القديمة ، وهي في بلاد اكد (منطقة اليوسفية ـ المحمودية) ويعرف الآن موقعها ب (الاحيمر)

(٥) (Early Dynastic Periods) من نهاية دور جمدة نصر الى سنة ٢٤٠٠ ق.م ، أي قيام السلالة الاكدية التي اشتهرت بمؤسسها سرجون الاكدي .

(٦) من مراكز الحضارة السومرية في ادوار فجر السلالات ، ورد اسمها (ايريخ في التوراة (سفر الخليقة ١٠/١٠) .

(٧) فاره الآن وموطن (اوتا ـ نبشتم) (نوح البابلي) .

(٨) (أبو حبة) قرب اليوسفية الآن .

(٩) راجع :
Excavations at Ur, by Sir Leonard Woolly, p. 249.

(١٠) قد يتوافق (العصر الحجري القديم) مع (عصر ما قبل الطوفان) والاخير قد يفسر ، الى حـــد مـــا ، بـ (انحسار الجليد الاعظم) أو بـ (طغيان البحر) الذي لم يشتق من طغيانه غير (جزائر بحر ايجه) .

وبالاطلاع على اعمار الملوك تلحظ المبالغة في أرقامها ، ونحن نرد ذلك الى رغبة واضعيها في اظهار طبيعة اولئك الملوك شبه الاسطورية . ان قوائم سلالات المصادر العلوية المتأخرين لا يمكن أن تقيد تأريخا بالمعنى الصحيح للكلمة وانمـا المراد منها عكس تطور الشعب اسطوريا .

لكثير من الشعوب الاخرى ، وملوكها ، في العالم القديم • ان (قصة الطوفان) نفسها تشبه حديث الملوك الذين تروي المنقولات وجودهم ، وأسماء المدن التي وجدوا فيها وسنيهم • فقصة الطوفان ، اصلا ، حقيقة تأريخية ، لكنها انتقلت بالرواية الشفوية فأدى ذلك الى اضافة أشياء اليها ، وحذف أشياء منها ، فوصلت الى الاجيال المتأخرة بالنسبة اليها في اطار مزخرف من الاساطير •

ان الثابت تأريخيا هو (عهد سلالة اور الاولى) التي اشرنا اليها ، وزمن المقبرة الملكية التي اشار اليها (وولي) في حفرياته ، وهذا العهد يقع في الطور الاخير من عصر فجر السلالات • اننا نعرف تأريخها السياسي وملوكها ومدنها ودويلاتها على وجه اليقين ، وان أول ملوك هذه السلالة ، بل من أوائل الملوك في التأريخ البشري ، هو (اور نانشه) •

٣ ـ قصة (الطوفان السومرية[١١] على ماوردت في (ملحمة كلكامش) ، على لسان (اوتا ـ نبشتم) :

يقول (اوتا نبشتم) لـ (كلكامش) :

• ساطلعك على أسرار ، واخبرك عن سر من الاسرار الالهية !

• كنت اعيش في (شروباك) ، وهي مدينة واقعة على الفرات ، وقد عرفتها •

• عزمت الالهة العظام[*] على احداث (الطوفان) ، وكان الاله (ايا) حاضرا مجلسها •

• عمد الى نقل ذلك الى (الصريفة : كوخ القصب) سكن (اوتا ـ نبشتم) •

• وخاطبه : يا كوخ القصب ••• الق السمع اليّ يا كوخ القصب ، وتأمل يا حائط !

• يا رجل (شروباك) ـ قوض بيتك ، وابن (سفينتك) ، وانبذ ما تملك !

• انج بحياتك وخذ معك الى (السفينة) بذرة كل كائن حي •

• وكان ردّي على (ايا ـ الهي) : ساصدع بما امرت ، ولكن قل لي : بم ساجيب اهل (مدينتي) ؟

• قال : خبّرهم بان (انليل) يجتويني ، فلن استطيع الى العيش في (بلدتكم) سبيلا •

---

(١١) نحن موردوها بوجيز كلام ومن أراد الوقوع على ترجمتها الحرفية فليراجع (سومر ، المجلد/٦ ، عدد/٢ ، سنة ١٩٥٠) •

(*) حفظت النصوص المدونة لنا أسماء نحو ٥٠٠٠ من الالهة السومرية ، وليس معنى هذا وجود ٥٠٠٠ من الالهة السومرية ، ذلك ان في حالات كثيرة يسمى الاله الواحد بأسماء شتى • وكان هناك (بانثيون) للآلهة السومرية تعترف به الامة ، ولما كان جميع الآلهة مجللين بالضرورة فان حظ كل واحد منهم يختلف في كل مدينة من المدن وهي شيء • قلنا ان الاله السومري الواحد قد يحمل أسماء مختلفة فالاله اينورتا يسمى في لاكاش (نينكرسو) ـ ذلك ان معبده كان في حي كيرسو ، وهو آن ـ شوشيناك في سوسه • يضاف الى ذلك ان واجبات الالهة المتعددين لم تكن محددة على الوجه القاطع وقد يطغى واصيب احدهم على الآخر • فالاله نينورتا هو اله الخضرة تارة واله الحرب تارة أخرى ، واله الحصاد مرة وبطل عظيم مرة أخرى ، وهو ابن انليل البكر •

وان عشتار هي سيدة الحملات (وعندها يمكن أن تسمى انونيتو) وهي الهة الحب أيضا •

راجع :
Sir Leonard Woolley: Abraham pp. 192-193

• سانزل الى مياه الـ (ابسو) لاعايش فيها (الهي : ايا) •

اما انتم ، اولاء ، فسيهطل المطر عليكم مدرارا •

وسيعمد (الموج بشؤون الزوابع) الى انزال مطر من حنطة عليكم(١٢) •

• وكان ان دعوت الناس ليتحلّقوا حولي ، وشرعت ببناء (الفلك) •

• اقمت هيكلها على اساس (ست) طبقات سفلية ،

وقسّمت (طبقاتها) الى تسعة أقسام ، وزودتها بما تحتاج اليه من مؤن •

• حملت عليها كل ما املك •

• ووضعت فيها بذرة كل كائن حي ،

• وادخلت فيها (اهلي) و (عشيرتي الاقربين) وحيوان البرية ووحوشها ، واهل الصنعة جميعا •

• وازف اليوم الموعود ، فارسل (الموج) بالزوابع « صوب السماء » مدراراً مهلكا •

• وارسلت نظري الى الجو ، فاذا هو راعب يرتدّ البصر عنه وهو حسير •

• ودخلت السفينة ، واغلقت بابها •

• وما ان انبلج الصبح لذي عينين الا لاحت سحب غرابيب سود ، من الافق البعيد تترى •

• وارعد الاله (ادد) داخلها ، واتجهت (رعوده) تلقاء السماء تتعالى •

• وولى النور من الدنيا واطبقت ظلمة عليها •

• واجتاحتها ريح صرصر عاتية ، استطال امدها يوما واحدا •

• كانت حربا عوانا •

• الناس لا تتبين السماء ، تعورت السدود، ودأبت العواصف الهوج طوال ستة أيام بلياليها •

• وفتحت ابواب السماء بماء منهمر •

• وغطى الطوفان وجه الارض جميعا •

• فملئت حتى الالهة رعبا وولت فرارا .... الى سماء (آنو) وأقْعتْ كالكلاب جميعا •

واطلقت (عشتار) صرخة تشبه صرخة امرأة جاءها المخاض !

وعلا نحيب (سيدة الالهة) شجيا ، وقالت :

« لقد تحولت (الخليقة القديمة) الى طين لازب ، لاني انذرت البشر وتوعدت في (مجلس الالهة) •

وغدا البشر الذين ولدتهم يملأون المياه ، مثل بيض السمك •

وفي (اليوم السابع) انكسرت حدة الريح العاصف ، وشدة الطوفان وهدأ الاعصار ، وسكن البحر •

فعمدت الى فتح (كوة) في (سفينتي) ، فوقع نور على وجهي ، وارسلت النظر الى البحر فوجدت ان كل شيء غدا هادئا رخيا ، وان

---

(١٢) ليست (الحنطة) هنا مقصودة لذاتها ، بل المقصود هو الهلاك والدمار ، ذلك ان (المفردة) المستعملة في (الاصل) تدل على المعنيين وفي ذلك تورية يقصد بها الى خداع أهل المدينة •

البشر قد استحال صلصالا كالفخار •

وانحنيت ، واخـــذت ارســـل الدمـــع مدرارا •

وغب جريان السفينة لمدة ١٢ ساعة مضاعفة استوت على جبل (نصير) !

وكان ان امسك بها ، ولم يدعهـا تتحرك طوال سبعة أيام •

وفي اليـــوم السابع اطلقت (حمـامة) ، فعادت لانها لم تعثر على (وكر) لها •

فاطلقت (الخطّاف : السنونو) ، فعاد لانه لم يعثر له على (وكر أيضا) •

ثم اطلقت (غـرابا) ، وكانت الميـاه قـد انحسرت ، فحام وحط واكل ••• ولم يعد !

واطلقت كل شـيء الى (الرياح الاربع) وقدمت قربانا •

وما ان شمّت الآلهـة (رائحة القربان) الذكية الا تساقطت عليه ، تساقط الذباب •

وقالت الالهة : (عشتار) : « ايتها الآلهة — « انني اذ لا انسى عقدي اللازورد الذي كان يطوّق جيدي ، اتذكر هذه الايام ولن انساها •

لتدن الآلهة من القربان جميعا الاّ (انليل) الذي احدث (الطوفان) ، من دون اناة او روية ، فاهلك البشر جميعا • »

وعنـدما وصـــل (انليل) وشهد (الفلك) استشاط غضبا لان بعض البشر قـد نجـــا من الهلاك وبقى حيا !

فانبرى له (الاله : ايا) وقال له :

(ايها البطل ! يا عقل الآلهة ، كيف جاز لك احداث (الطوفان) ، من دون اناة او روية فليحمـل المذنب وزر خطيئتـه • لا تفـرط في الشدّة على من اذنب ولا تلن له حتى يفلت من زمامه • »

ثم ان (انليل) رقي السفينة واخذ بيدي واخرجني وزوجي منها •••

فسجدنا له •

ثم وقف بيننا ومر بيده على ناصية كل منا وباركنا قائلا :

« ما كان (اوتو — نبشتم) حتى يومنا هذا الا انسانا ، اما الآن ، فليصبح (اوتو — نبشتم) ، وزوجه (الهين) مثلنا نحن الآلهة •

سيعيش (اوتو — نبشتم) عن (فم الانهار) بعيدا • »

وكان ان اخذ بيدي واسكنت عنده •

نستخلص من هذه (القصة — الاسطورة) ان ليس ثمة سبب حمل الآلهة على افناء الجنس البشري بالطوفان الا العـداء الذي استحكم بين الطرفين ، كما يستشف من (القصة) ان (مجلس الآلهة) كان قد اتخـــذ قرارا بتدمير (شروباك) وحدها ، ولم يقرر افناء الجنس البشري كله ، وان (انليل) هو الذي أراد اهلاك البشر من دون روية • وما كان (انليل) في معتقد السومريين الا الهواء مجسّما ، وهو يلقب ، مثل الاله (آنو) ، بـ (ابى الالهة) ، ولما كان (الاله آنو) قد اخلد الى عرشه في السماء ، معتزلا أمور البشر ، لذا حل (انليل) محله وأصبح اعظم الآلهة في الديانة السومرية والبابليـة ، ومعنى اســـمه (الرب — الهواء) • انه ، على ما يتراءى في القصـة ، ذو عرام ياخذ البشر بالشدّ وكانت (نفر) موضع عبادته ، لذلك كان لها المقام الاسنى من بين المدن السومرية القديمة • ومن وظائفه المهمة المحافظة

على (الواح القدر) ، اذ ان من يحصل عليها يصبح ذا مكنة على التحكم في الاقدار • اما الاله (ايا) الذي ورد ذكره في (الاسطورة) ، ويطلق عليه في الاحيان (انكي) ، فهو (ثالث الالهة) اعتبارا من (آنو) ، وهو (آله الحكمة) ، معلم البشـر القراءة والكتابة واصول العمران ، ومن (موقفه) في (الاسطورة) يتبين انه (محب للبشر) ، وانه هو الذي فشى (سر قرار الالهة) باحداث الطوفان واهـلاك البشـر ، واسربه الى (اوتا ـ نبشتم) ، وكان موضع عبـادته في (اريدو) ابو شهرين الحالية ، من المدن السومرية المقدسة •

امـا (كـوخ القصـب) الوارد في (قصـة الطوفان) فهو ، بلا ريب ، سكن اوتا ـ نبشتم ، اما ما قالته الالهة عشتار : (يا ايتها الالهة • كما انني لا انسـى عقـد اللازورد الذي في عنقي فسأتذكر هذه الايام ولن انساها ، فنسترجح ، نحن وغيرنا ، ان لهذا شبها في التوراة ، اذ ورد فيها ان (قوس قزح) كان ارهاصا بالعهد الذي اخذه نوح بعدم وقوع طوفان يجتاح الارض • ان هذا العقد كان اعطاها اياه (آنو) ، او (آن) في السومرية •

ومما يدل على الوجه القاطع اللاحب على ان قصة الطوفان هذه قديمة في الثقافـة السومرية العثور على لوح في (سبار ـ ابوحبة) يذكرهـا ويرجع تأريخه الى ٢١٠٠ ق•م • ان هـذا اللوح مشوه الى حد كبير الا انه ، على الرغم من ذلك ، لا يتعسـر امر الوقوف على التشابه بين القصة التي يحملها وبين (ملحمة كلكامش) •

وذكر (بيروسس : Berossus) ترجمة لاسطورة الطوفان في (تأريخه) نابه الذكر ، وقد تبـدل فيهـا اسـم (ايا) باسم (كرونوس : Chronos) واسم (اوتا ـ نبشتم) باسم (الملك اكزيسو تروس : Xisu Thros) ومدينـة (شروباك Shuruppak) باسم مدينة (سبار Sippar) ، وختام هـذه القصة من قصص الطوفان ان الخلـود لا يمنح للملك المذكـور وزوجه حسب ، وانما يشـمل ابنتـه وملاحـه أيضا •

قصة الطوفان البابلية :

اثبت (جورج سميث) ، من منتسبي المتحف البريطاني ، ان (قصة الطوفان البابلية) لا تتسم بالاصالة ، وذلك بنتيجة فك خط الرقيمة الـ ١١ من (ملحمة كلكامش) ، وانهـا ذات أصـل سومري ، لا لبس في ذلك ولا غموض • وكان (ارنو پوبيل Arno Poebel) قد نشـر ، في سنة ١٩١٤ ، الثلث الاسفل من رقيمة سومرية ذات ستة أعمدة (هي الآن في مجموعة نفر في متحف الجامعة) مخصص الجانب الاعظم منها الى (قصة الطوفان) •

ان (الرقيمـة) المذكورة متكسـرة ، وعلى الرغم من ذلك هي تجلو كثيرا مما يتصل بـ (خلق الانسان) ، واصل (الوشائج البشرية) ، وهي تذكر ما لا يقل عن خمس مدن من مدن العراق التي قامت قبل الطوفان ، في الاقل •

وبعـد (فجوة) تقدر بـ (٣٧ سطرا) تبـدأ مدونات الرقيمـة ، لذلك انبهم علينـا مبتدأ (الاسطورة) •

وتبدأ (المدونات) بخطاب (اله) أيا الى غيره من (الآلهة) ، ولعله بدأ خطابه قائلا : بانه يريد

انقاذ البشر من الدمار والهلاك ، وانه ، بنتيجة ذلك ، سيعاود الانسان بناء المدن والمعابد للآلهة .

ثم تلي ذلك (ثلاثة اسطر) يتعسر وصلها بسياق ما ترويه الاسطورة . والظاهر انها تتعلق بوصف (الفعال) التي على (المعبود) ان يقوم بها ليجعل اقواله حقة .

وتلي ذلك (اربعة اسطر) تتصل بـ (خلق الانسان) وبـ (خلق الحيوان) وبـ (خلق النبات) ، واليك العبارة التي تحتويها الاسطر الاربعة المشار اليها :

« بشري ، في دماره ساعمل
الى (ننتو : Nintu) ساعيد ما لمخلوقاتي
ساعيد الناس الى مستوطناتهم
وفي المدن سيبنون الاماكن الخاصة بالشرائع الالهية
ساجعل ظلهم مستقرا
ان اماكن قراراتي سيعثرون عليها في امكنة خالصة
لقد وجه الماء الصافي الذي يطفىء النار
لقد اتقن الطقوس ورفع من شأن الشرائع الالهية
وعلى الارض قام بـ ... ووضع ... عليها
وبعد (آن) و (انليل) و (انكي)[١٣] و (ننخورساك) .
صاغ البشر ، ذوى الرؤوس السود
ومن الارض نبتت الخضرة العميمة .
وخلقت الحيوانات ، والمخلوقات ذوات الاربع ، في السهل ، وصورت على أحسن تقويم . »

ثم تلي ذلك (فجوة) من نحو ٣٧ سطرا ، نعلم ، بعدها ، ان (ذات الجلال) قد هبطت من السماء وان قد تأسست (خمس مدن) .

« بعد هبوط ذات الجلال ، من السماء
وبعد نزول الـ (تيارا) الستة ، و (عرش الجلالة) من السماء
قام باتقان الطقوس ، ورفع شأن الشرائع الالهية
واسس المدن الخمس في ...
امكنة طاهرة
واطلق عليها اسماءها وخصصها باعتدادها مراكز للعبادة
اول هذه المدن (اريدو) وقد جاد بها الزعيم نديمد
والثانية (بادتيبرا) واعطاها الى ...
والثالثة (لاراك) واعطاها الى اندربيل خرساك
والرابعة (سيبار) واعطاها الى البطل (اوتو)
والخامسة (شروباك) واعطاها الى (سود)
وما ان اطلق الاسماء على هذه المدن الا خصصها مراكز للعبادة
وجاء بـ .....

---

(١٣) هو الاله (ايا) نفسه ويسمى معبده (اى ــ ابسو) اي (بيت المياه) اشارة الى انه شيد بيته في المياه الاولى التي جسموها بالاله (ابسو) على ما ورد في قصة الخليقة ونسب البابليون الى هذا الاله زوجة وسموها (ننن كي) و (دم كينا) ، وهو اب للاله البابلي مردوخ . ومما يجدر ذكره ان (الكون) عند قدامى سكان العراق يتألف من (السماء) و (الارض) على ما يدل عليه اسم الكون في السومرية وهو : (آن ــ كي) .

واسس نظام تطهير النهيرات »

ـ ثم تلي ذلك فجـوة من (٣٧ سطرا) ، ولعلها كانت تتناول (القرار) الذي اتخذته الالهة باحداث (الفيضان) وتدمير (بني الانسان) • وما ان يصبح (النص) قابلا للاستبانة الا نجـد أن بعض الآلهة غير مطمئنة وسعيدة الى اتخاذ ذلكم (القـــرار) القاســـي • ثم ان (النص) عـــن (زيوسدرا) ، وهو نظير (نوح) في (التوراة) • انه موصوف فيه بالتقوى ومخافة الله ، يرقب (الوحي الالهي) يأتيه في الاحلام ، دوما • ويتراءى انه كان يرتكن مستقرا الى جدار ، ويلقي السمع الى (صوت الالهة) يتناهى اليه ويعلمه بانها اتخذت في (مجلسها) قرارا باطلاق (الطوفان) •

و « تحطيم بذرة الانسان »

ـ ان العبارة التي تستطيل وردت على هذا المنوال :

« الطوفان ••••

••••••••

عومل على هذا •••

ثم بكى (نينتو) مثل •••

وارسلت (انانا)[١٤] الطاهرة تعـزية الى شعبها

ورجع (انكي)[١٥] الى نفسه يستشيرها

(ان) (انليل) (أنكي) و (ننخورساك) آلهة السماء والارض قد نطقوا باسمي (آن) و (انليل)

ثم ان (زيوسدرا)(*) ، ملك

وباشسبو •••

بنى ••• ضخما

بتواضع وطاعة كان دوما

ياتي بجميع ملوك الاحلام

وانه بافصاحه عن اسمي السماء والارض

••••• جدارا

ـ والقى السمع (زيو سندرا) ، وهو واقف الى جانبه

ـ قف قرب الجـــدار ، اذ سأقول لك كلمة •••

ـ خذ (كلمتي) •••

ـ اصغ الى (تعليماتي)

ـ ب •••• سيكتسح (الطوفان) مراكـز العبادة •

ـ ليحطم (بذرة الانسانية)

ـ انه (القرار) و (كلمة مؤتمر الالهة) • بامر (آن) و (انليل)

ستختم صفحة (جلالها) وحكمها • »

• وكان مما لابد منه ان يمضي (النص) ،

---

(١٤) او (اينانا) او (ايننى) عنـــد السومريين وهي عشتار (التي تمثلها كوكب الزهرة) ـ ومعنى اسمهـــا (سيدة السماء) وعرفت باسم (عشتاروت) و (عشتوريت) و (فينوس) و (افروديت) عنـــد مختلـــف الشعوب •

(١٥) (أيكى) موصـــوف في التـــراث السومري ـ البابلي بالحكمة والدهاء وقـــوة الخلق وهي الصفات التي يراد أن يتصف بهـا المعني بشؤون الارواء •

(*) يلحـــظ ان الاســـم ورد في النص السومري المستخرج من نفر (نحو ١٧٠٠ ق•م) بهذه الصيغة على حين ورد في الملحمة البابليـــة التي يعود تأريخها الى ما بعد ذلك بقليل (ارا هاسيس : العاقل للغاية) ولعـــل هـــذا اسم مستعار لـ (اوتا ـ نبشتم) •

فيثبّت (تعليمات) صادرة الى (زيوسندرا) ليبني سفينة ضخمة وينقذ نفسه من الدمار • لكن ذلك مفقود ، اذ ثمة (فجوة) اخرى ، من ٤٠ سطرا ، عند هذه (النقطة) عينها • وما ان يستبين (النص) ، كرة اخرى ، الا نجد ان (الطوفان) قد دهم ، بكل عرام وقوة ، (الارض) ، وهاج ماؤه عليها وماج ، واستدام ذلك سبعة أيام ، بلياليها ، • ثم يظهر (الاله ـ الشمس اوتو) مرة أخرى ، ومعه الضوء النفيس ، ليغمر الارجاء كلها ، وعندها يقف (زيوسندرا) في حضرته ويقدم القرابين •

ان السطور التي تمثل ذلك هي :

« انقضت الاعاصير كلها ، بقوة ما بعدها من قوة ، وكأنها اعصار واحد •••

ـ وغمر الطوفان ، في الوقت نفسه ، مراكز العبادة كلها •••

ـ وعقيب ذلك، غمر ماء (الطوفان) الارض واستدام ذلك سبعة أيام وسبع ليال

ـ وكانت (السفينة الضخمة) تهزها الاعاصير وهي تجري فوق الماء الغمر

ـ وظهر (اوتو) فسكب الضوء على السماء والارض معا

ـ وفتح (زيوسندرا) في (السفينة الضخمة) نافذة

ـ وارسل البطل (اوتو) اشعته الى تلكم السفينة الضخمة

ـ وسجد (زيوسندرا ـ الملك) امام (اوتو) •

ـ وقتل الملك ثورا وذبح خروفا

• ثم تلي ذلك (فجوة) أيضا ، مؤلفة من ٣٩ سطرا ، كرة أخرى • ان السطور الطويلة في (نصنا) لتصف تأليه (زيوسندرا) • ذلك انه ، اثر سجوده أمام (آن) و (انليل) ، منح الحياة باعتداده إلها ، كما منح (نفسا سرمديا خالدا) ، فاقرأ السطور التالية :

ـ « افصح (آن) و (انليل) عن (نفس السماء) •

ـ وعن (نفس الارض) بما عندهما من ••

ـ ومد نفسه •••

ـ وتعالت الخضرة ناجمة من الارض

ـ وسجد (زيوسندرا) الملك امام (آن) و (انليل)

ـ ومتّع كل من (آن) و (انليل) : (زيوسندرا)

ـ لقد جادا عليه بحياة شبيهة بحياة اله

ـ ونفسا سرمدية شبيهة بنفس اله

ـ انزلاها له

ـ ثم ان (زيوسندرا) الملك •••

ـ من حفظ النبات ، وبذرة (بني الانسان)

ـ في الارض العبور (أرض ديلمون) المكان الذي تشرق فيه الشمس

ـ وجعلاه يسكن فيها •

• ان بقية (الرقيمة) الحاوية على نحو ٣٩ سطرا مهشمة لذلك لا نعرف شيئا اكثر عما حدث لـ (زيوسندرا) الذي صيغ شكله في موطن الخالدين مجددا •

قصة الطوفان ، على ما وردت في (التوراة) :

يتناول (سفر التكوين) من (التوراة) ، في (الاصحاح السادس) و (الاصحاح السابع) و

(الاصحاح الثامن) و (الاصحاح التاسع) ، (قصة الطوفان) بخاصة ، كما يتناول : (كيف خلق العالم ؟) (وكيف خلق آدم) و (كيف طرد من الجنة ؟) و (كيف تكاثر ذرّه ؟) و (كيف تم اغراق البشر بالطوفان ايام نوح ؟) وأخيرا (كيف تكاثر نسله بعد ذلك كرّة أخرى؟) بعامة .

واليك (قصة الطوفان) ، بوجيز كلام ، على ما وردت في (سفر التكوين) تمهيدا لمقابلتها ومقارنتها ، لاظهار اوجه الشبه واوجه الاختلاف بينها وبين (قصة الطوفان) السومرية ـ البابلية :

الاصحاح السادس

ـ لما ابتدأ الناس يتكاثرون على الارض..

ـ ورأى (الرب) ان شر الانسان قد كثر في الارض

ـ فحزن ... انه عمل الانسان في الارض ، وتأسف في قلبه

ـ فقال الرب : امحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته

ـ اما (نوح) فوجد نعمة في عينيّ الرب

ـ كان نوح رجلا بارا ... وولد .... ثلاثة بنين : ساما وحاما ويافثا ...

ـ وفسدت الارض أمام الله وامتلأت ... ظلما

ـ فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد اتت امامي

ـ اصنع لنفسك (فلكا) من خشب حفر ، تجعل الفلك مساكن وتطليه ، من داخل ومن خارج ، بالقار ، وهكذا تصنعه .

ـ ٣٠٠ ذراع يكون طول الفلك ، وخمسين ذراعا عرضه ، وثلاثين ذراعا ارتفاعه .

ـ تصنع كوّا (الفلك) وتكمله الى حد ذراع من فوق ...

ـ وتصنع باب (الفلك) في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله

ـ فها انا آت بطوفان الماء على الارض لاهلك . كل جسد فيه روح حيوة من تحت الشيء .

ـ ففعل (نوح) حسب كل ما أمره به الله ، هكذا فعل .

الاصحاح السابع

ـ وقال الرب لنوح : ادخل ، انت وجميع بنيك ، الى (الفلك) لاني اياك رأيت باراً لدى هذا الجيل .

ـ من جميع البهائم الطاهرة ، تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وانثى ...

ـ ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين : ذكرا وانثى ...

ـ ومن طيور السماء أيضا : سبعة سبعة : ذكرا وانثى

ـ لاستبقاء نسل على وجه الارض

ـ لاني ، بعد سبعة أيام أيضا ، امطر على الارض اربعين يوما ، واربعين ليلة ...

ـ وامحو عن وجه الارض كل قائم عملته

ـ ففعل نوح حسب ما امره به الرب .

ـ ولما كان نوح ابن ست مائة سنة صار طوفان الماء على الارض ، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان ، ومن البهائم التي ليست بطاهرة ، ومن

الطيور وكل ما يدب على الارض دخل اثنان اثنان الى نوح ، الى الفلك ، ذكرا وانثى ،

ـ كما امر الله

ـ وحدث ، بعد السبعة الايام ، ان مياه الطوفان صارت على الارض ... وانفتحت طاقات السماء

ـ وكان الطوفان اربعين يوما على الارض ، فكان الفلك يسير على وجه الماء ...

فتغطت جميع الجبال الشامخة ... خمسة عشر ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه ... فمات كل ذي جسد كان يدب على الارض ... وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط .. وتعاظمت المياه على الارض مائة وخمسين يوما

الاصحاح الثامن

ـ واجاز الله ريحا على الارض فهدأت المياه

ـ وانسدت ينابيع الغمر ، وطاقات السماء

ـ وبعد ١٥٠ يوما نقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع ، في اليوم السابع عشر من الشهر ، على جبل (اراراط) ... وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال

ـ وحدث ، بعد اربعين يوما ، أن نوحا فتح طاقة الفلك التي كان عملها ، وارسل الغراب

ـ ثم ارسل الحمامة فلم تجد مقرا لرجلها ، فرجعت

ـ فلبث أيضا سبعة أيام اخر

ـ وعاد فارسل الحمامة من الفلك فاتت اليه الحمامة عند المساء

ـ واذا ورقة زيتون خضراء في فمها .

ـ فعلم (نوح) ان المياه قد قلت عن (الارض)

ـ فلبث أيضا سبعة أيام اخر

ـ وارسل الحمامة فلم تعد ترجع اليه

ـ وكلم الله (نوحا) قائلا : اخرج من (الفلك) ، انت وامرأتك وبنوك ونساء بيتك معك وكل الحيوانات ... ولتتوالد في الارض

ـ ... فخرج

وبنى للرب مذبحا ...

الاصحاح التاسع

ـ وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم : اثمروا واملأوا الارض

ـ وقال الله هذه هي علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم

ـ وضعت قوسي في السماء فتكون علامة ميثاق بيني وبين الارض

وتظهر القوس في السحاب

ـ اني اذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد

ـ فلا تكون المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد

ـ فمتى كانت القوس في السحاب ابصرها لاذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حية ، في كل جسد على الارض

ـ وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فابصر حام او كنعام عورة ابيه واخبر اخويه خارجا فاخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا الى الوراء وساترا عورة ابيهما ..

ـ وعاش نوح بعـــد الطـوفان ثلاثمـائة وخمسين سنة

ـ فكانت كل ايام نوح تسعمائة وخمسين سنة(*)

ـ ومات •

ويذهب كثـــير من الباحثين الى ان كاتب التوراة هو (عزرا الكاتب) وقد عاش على ما ورد في (التوراة) نفسها في حـدود سنة ٤٥٨ (ق٠م) وكان حفيا عند الملك ارتحششتا ملك ماذى وبابل

وهـذا ، بنظرهـم ، يفسـر تأثر التوراة بقصص الطوفان البابلية •

واليه ينسب المرقد المعروف باسمه في لواء العمارة ، وعن سبيل علاقته مع الملك المذكـور استطاع أن يجعل القانون اليهودي اساسا للطائفة اليهودية التي ظهرت في فلسطين كرة أخرى • وفي (التوراة) سفر خاص باسمه •• وكان قد اتخذ سبيله الى فلسطين للغاية المذكورة(١٦) •

قصة الطوفان على ما وردت في (رقيمات الخزانة الآشورية) :

في أثناء قيام سرهنري لايرد Sir H. Layard (١٨٥٠) بالنبش في خرائب نينوى ، في قصـر الملك الآشوري : سنحاريب ، على التحديد ، عثر على غرفتين فرشت ارضيتاهما برقيمات من طين مفخور ، عليها مدونات ، وهي تعلو عن ارضية الغرفتين بنحو قدم واحدة • وفي سنة ١٨٥٣ ، عثر مساعده : رسام ، في قصر آخر بنـاه الملك الآشوري : آشور بانيبـال ٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق٠م ، على مجموعة أخرى من الرقيمات لا تقل عـن الاولى خطرا • وهكـذا بلغ مجموع الرقيمات الكلي : ٢٥٠٧٣ رقيمة ، وهي تكـوّن خزانتي كتب ملكيتين على وجه التمام • وكان ان أرسلت الرقيمات الى انكلترة في سنتي ١٨٥٤/١٨٥٥ بغية فتح خطها فالوقوف على محتواها من قبل الاختصاصيين من امثـال رولنصن وهنكس وغيرهما في (المتحفة البريطانية) ، لكن ذلك لم يتم الا بعد ١٥ سنة ، على يـد جورج سميث ، مسـاعد امين العاديات الآشورية في (المتحفة) المذكورة وهـو الذي عثر على القطع الـ ١١ من رقيمات ، قصة الطوفان البابلية(*) • انه اكتشاف رائع عظيم ••• فاستمع الى (كلماته) في وصف اكتشافه :

(*) الصورة التي ترسمها (التـــوراة) لـ (نوح التوراتي) انه الأصـل الثـاني الذي نسل البشرية • هو ابن (لافح) ووالد (سام) و (حام) و (يافث) ومنهم ولد بنو الاسا • [سفر لتكوين : ٥/٢٨ ، ٩/٢٩]

وبسبب من خطايا البشر انزل (الرب) بهم نازلة الطوفان الذي شمل الارض كلها ودمرها تدميرا • لكن نوحا كان عبدا مطيعا لذلك أمر بأن يبنى (الفلك) وينقذ اهله وممثلي عالم الحيوان في الارض • وعندما انحسـر الطوفان استوت السفينة على جبل اراراط حيث بنى نوح محرابا وقدم الضحايا المحروقة الى الرب • وكان بين (الرب) و (نوح) عهدا شمل بني الانسان كلهم • فالرب لن يحطم من خلقهم كرّة أخرى • واعطى (الرب) الـ (قوس قزح) دلالة عـلى امضاء هذا العهد • وكان عمر نوح عندما حان حينه ٩٥٠ سنة •

[سفر التلوين : ٩/٢٩]

(١٦) Encyclopedia International, Ezra and Ezra, Book of •

(*) يعين موقع هذا الجبل عادة بجبـل (بير عمر كدرون) وعلوه ٩٠٠٠ من الاقدام وهو في جبال زاغروس جنوبي الزاب الادنى •

التقطت عيناي عبارة تفيد بان السفينة استولت على جبال (نيزير : Nizir) (ارارات التوارتي) ثم يعقب ذلك : سرد اطلاق الحمامة ، وعثورها على وكر لها ، فعودتها • لقد تبين لي جليا أني عثرت على قسم من قصة الطوفان الكلدانية ، في الاقل[١٧] • لقد هز هذا مشاعر الناس في لندن واثار اهتمامهم ، وعرضت صحيفة (ديلي تلغراف Daily Telegraph) مبلغ ١٠٠٠ جنيه ان سافر (سميث) الا نينوى بحثا عن كسارت الرقيمة التي تكمل (القصة) • وكان ذلك ، واستطاع من أن يكشف عن الشطر الاكبر من الـ ١٧ سطرا من الكتابة المتعلقة بالعمود الاول الخاص بقصة الطوفان الكلدانية ، وهو يلائم المكان الذي كانت فيه (فجوة) على حظ من خطر في تلكم (القصة) » •

ان (قصة الطوفان) ، على ما تجلت من هذه كلها ، ذات طابع روائي (دراماطيقي) وهي على غرار (القصة التوراتية) سواء بسواء • انها تذكر (اوتو ـ نبشتم) ، وهو من كان بيته في (شروباك) ، على الفرات • وانه ، على غرار نوح ، أوحى اليه الاله (ايا : Ea) بخبر الكارثة التي ستحل بالارض ، واوصاه بان يصنع فلكا ، كما اعطاه تفصيلات تتصل بحجمها وبنائها• وما ان فعل ذلك الا صدع بما امر (ايا) ، بقدر تعلق الامر بشحنها بما يملك جميعا وبجميع بذور الارض » • وهنا يكمل (اوتو ـ نبشتم) القصة ، قائلا : « لقد جعلت جميع أفراد اسرتي في (الفلك) وذوي قرباي أيضا ، وحيوانات الحقل أيضا ، ووحوشه ، وجميع الحرفيين اليدويين حملتهم على ولوجها • » وما ان تقرب يوم (الطوفان) الموعود ، الا اخذ يرقب طلائع الاعصار الآتي : « لقد ملئت رعبا وانا انظر اليه ، فدخلت (الفلك) واوصدت بابها • والى ربانها (والظاهر انه ملك) عهدت أمر ذلكم البيت العظيم وكل ما يحتوى عليه » • ثم يمضي اوتو ـ نبشتم فيقص قصة الدمار المروع الذي نزل بالارض والاعاصير التي اطبقت عليها : « لقد كان الماء يهجم على الناس وكأنها معركة ناشبة • وما كان الاخ بمستطيع رؤية اخيه ، وما كان الناس ليميزوا من السماء • وأقعت الآلهة على غرار ما يفعل الكلب ، ولجئت الى الجدار • وارتفع عويل (الالهة عشتار) وكانها امرأة تعول من نازلة • وندبت سيدة الآلهة بصوت عذب • ودأبت الريح العاصفة على الهياج ، واطبق الاعصار على الارض كلها • » وما ان حل اليوم السابع الا توقف الاعصار ، لقد كانت العاصفة والمعركة التي خيضت على غرار ما يفعل الجيش » • وفي الوقت نفسه استوت (الفلك) على جبل (نيزير) ، واثر فتح ثقب الهواء اخذ (اوتو ـ نبشتم) يقوم بالتحريات التي اجراها (نوح) عينها : « جئت بحمامة واطلقتها • وطارت ثم عادت ، لانها لم تجد وكرا لها • وجئت بخطاف واطلقته ، وبسبب من عدم استطاعته العثور على وكر له ، عاد • وجئت بغراب واطلقته ، وطار الغراب وشهد المياه وهي تغيض • وخاض فيها ، لكنه لم يعد • وعلى غرار

---

(١٧) راجع :

Hutchinson R.W.: A Century of Exploration at Nineveh. London, 1929.

ما فعل (نوح التوراتي) خرج (اوتو ـ نبشتم) من (الفلك) وقدم القرابين للآلهة ، وتجمعت الآلهة كالذباب ، على من كان يقدم القرابين • وقدمت الآلهة عشتار جواهرها الفريدة ، التي لا تثمن ، حمداً وشكرانا ، لكن (الاله انليل) ، وهو من كان غضبه سببا في المتاعب كلهـا ، لم يسر ، في بادىء الامر ، من ان تبقى حياة ما • واخـيرا حمله احـد زملائه على اظهار الرحمة واسباغها على من في (الفلك) راحلين • ورفع (اوتو ـ نبشتم) وزوجه الى مصاف الآلهة •

وما ان يبست الارض ، كـرة اخـرى ، وعادت الملكية من عل ، الا نعلم بانها كانت في كيش ، أول مرة • لذلك ظهر فيها أول اسم في قائمة الملوك بعـد (الطوفان) ، وهـو مؤسس السـلالة الاولى ظهـر في (كيش) • ثم يأتي بعده نحو ٧٠ ملـكا ينقسمون الى ١٤ سلالة ، ويبلغ مجموعي سني الحكم المقسومة لهم نحـو ٣٠٫٠٠٠ سـنة • ولو عرضنا عن استحالة كون هذه السنين تمثل حياة اولئك الملوك حقا ، اذ ورد ان حكم احدهم استطال لمدة ١٥٠٠ سنة ، فاننا لنعلم من التنقيبات الآثارية ان السلالات ، على تتابعها لم يستطل امدها الآمدة اقصر من تلـكم المدة بكثير • فنحن نعرف ، على سبيل المثال ، ان نهايتهم لا معدى عن ان تطابق تغلب الاكديين على (أرض سومر) ، وهذا لا يرجع على اوغل زمن الا الى سنة ٢٨٠٠ ق•م • ونحن نعلم اننا لو أخذنا بالبينة التي تظهرها ترسبات الطين في كل من (الوركاء) و (فاره) ، وعيّنا (طوفان) المدونات بنهاية (عهد جمدة نصر) ، فان نظام السلالات السومرية القديمـة يجب ان يضغط ليكون عهدا امده يتراوح بين ٢٠٠ ـ ٥٠٠ سنة • لذلك يجب ان نجتزىء ونحمل انفسنا على اعتماد نظام أرقام حكم الملوك مبنيا على رمز فلكي من نوع ما[١٨] •

ما انفكت الشـعوب الفطـرية البدائيـة والمتحضرة تروى (قصة الطوفان) ، كابرا عن كابر ، جيلا اثر جيل ، ويلحظ الشبه الكبير بين (قصته) على ما وردت في (الرقيمات الآشورية) ، (الاساطير السومرية) وهي الاصل ، وقصة نوح التوراتي ، ونسترجح ان (ابراهيم) قد نقلها ، في رحلته من اور (الكلدان) الى أرض كنعان • ان مرد الاصل في (القصـة) ، سـومرية كانت ام بابليـة ، وتوراتية كانت ام آشورية الى حدوث فيضـان عظيم في بلاد ما بين النهرين السـفلية استطال زمنه ـ وصحبه اعصـار مدمر ورياح صرصر عاتية وزلزال وتدفق موجات عارمـة من (الخليج العربي) ، ففمر المـاء جميع الارضين المعروفة لسكان عالم تلكم الازمنة ، ولهذا يفسر خلود (القصة) عبر اجيال •

ومن الطريف ان نلحظ أيضا بعض اثار (قصة الطوفان) على ما وردت في هـذه المصادر الاربعة في التراث العربي أيضا فالجاحظ في كتابه (الحيوان)[١٩] : « وقال صاحب الحمام : اما العرب والاعراب والشعراء ، فقد اطبقوا على ان الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده ، وهي التي استحقت عليه الطوق الذي في عنقها ، وعند

---

(١٨) راجع :
Seton Lloyd : Twin Rivers p. 20.

(١٩) ج١ ص٤٦٩/٤٧٠ •

ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة ، بدعاء نوح عليه السلام حين رجعت اليه ، ومعها من الكرم ما معها ، وفي رجليها من الطين ما برجليها ، فعوضت من ذلك الطين خضاب الرجلين ، ومن حسن الادلة والطاعة طوق العنق

« وقال جهم بن خلف الشاعر العربي ، يذكر الحمامة بالنوح والغناء والطوق ويتطرق الى (دعوة نوح) :

وقد شاقني نوح قمرية
طروب العشي هتوف الضحى
من الورق نوّاحة باكرت
عسيب اشاء بذات الغضا
تغنت عليه بلحن لها
يهيج للصب ما قد مضى
مطوقة كسيت زينة
(بدعوة نوح لها اذ دعا)

قلت : ان ماورد على لسان الكتاب والشعراء العرب من نثار معلومات تتصل بقصة (الطوفان) لا معدى عن ان يكون من الاسرائيليات ، ومنها هذه ، لان (الطوفان القرآني) لا يحفل بمثل هذه التفصيلات ، فالقصص في القرآن ، على التحقيق لم ترد لذاتها ، بل للعبرة والاعتبار حسب .

تمحيص (فرضية وولي) ، المستندة الى تنقيباته ، في الطوفان :

ذكرنا فيما مضى : ان « الراحل سرليناردوولي » المنقب المتمايز كان حفر « مجسات » عديدة ، خلال تنقياته في (اور) ، قرب سور المدينة الجوانية ، وفي ضمن المنطقة الذائعة الصيت المسماة بـ (المقبرة الملوكية) والتي تعود بزمنها الى (فجر السلالات) . وانه ، بعد ان نفذ الى مستويات سكنية عديدة ، بلغ طبقة من ترسبات صلصالية نقية خلفتها المياه ، ثخنها ٩ أقدام ، ولا تضم أي شيء تقريبا(*) ان فوق هذه الطبقة ، وما تحتها ، رأسا كسارات الخزف »(٢٠) « والعديد من اللقط التي تعود الى (حضارة عبيد) ، وفي قعر الحفر كانت التربة البكر . لقد كان الاثاري ، النابه الذكر ، وولي يذهب الى ان طبقة من ترسبات الطين ، ثخنها ٩ أقدام ، لا معدى عن ان تكون مخلفة عن طوفان علو مائه ٢٥ قدما في الاقل . وفي أرض بسيطة ، كأرض ما بين النهرين ، ان طوفانا علو مائه ٢٥ قدما ليشمل مساحة من الارضين طولها ٣٠٠ ميل ، وعرضها ١٠٠ ميل . وخلص من ذلك كله : الى حدوث طوفان ، لا نظير له ، في أي عهد من عهود تأريخ بلاد ما بين النهرين المتأخرة . لذلك عد (الفيضان) الذي طغى على مساكن (عهد عبيد)

(*) تفصل (هذه الطبقة) بين عصرى (عبيد) المبكر والمتأخر . ومعنى هذا انها تخص العصر الحجري ـ النحاس ذاته . وفي مواقع أخرى جرى فيها نبش ، ومنها (اوروك) وجدت الطبقات الحضارية تتوالى من دون انقطاع : من عصر (عبيد) المبكر حتى المتأخر ، ومن دون ان تعترضها طبقة من صلصال مترسب . وليست هناك من بينة تحمل على الاعتقاد بان التواتر البلدي يؤيد وجود حد فاصل بين (العصر الحجري الحديث) و (عصر فجر التأريخ) وبشكل يحمل على ان (الطوفان) يفصل بين العصرين .

(٢٠) الخزف وقد دهن باللون الازرق أو الاخضر على غرار ما يشاهد في صناعته المحلية عندنا اليوم .

في (اور) هـو (الطوفان) الذي ورد ذكـره في (التوراة) • واضاف وولي الى ذلك : « ان هذا ليس بالامر العجاب ، فابراهيم كان رحل من اور الكلدان ـ (سفر الخليقة ١٠/٣١) ـ ومن الممكن جدا ان يحمل معه قصة الطوفان الى أرض كنعان ، وهي قصّة كانت شائعة ذائعة في أيامه شيوع (قصـة فرسـان المائـدة المستديرة (Knights of the Round Table)) في انكلترة ، أيام القرون الوسيطة •

وفي الواقع ان ما ذهب اليه (وولي) لم ينظر اليه احد بجد أو باعتداده حقيقة قاطعة فيما سوى (المكتشف) نفسه ، وذلك للاسباب التالية :

١ ـ ان الترسبات التي اعتدها وولي مخلفة عن (الطوفان) شغلت منطقة محددة ، على حين اعتدت الكتب المقدّسة (الطوفان) عالميا ، أي شاملا للعالم المعروف في أيامه •

٢ ـ ان اريدو[٢١] التي لا تبعد أكثر من ١٥ ميلا من اور ، وهي اخفض منها الى حد ما ، لم تجد لنا بأية بينة ، أو اثر ، على شمولها بهذا (الطوفان) •

٣ ـ صحيح ان قـد عثر على ترسبات من طين في مواقع عديدة أخرى ، لكنها تتباين كثيرا ، باعتداد الثخن ، وتختلف في وضعها في السلسال التأريخي Chronology • فعلى سبيل المثال ان مستوى الفيضـان في (كيش)[٢٢] يرجع الى (فجر السلالات) وليس الى (عهد عبيد) وينطبق ذلك أيضا على الترسبات الصلصال الرقيقة التي عثر عليهـا في (اوروك) و (لكاش) ومدينـة اوتنبشتم : شروباك)[٢٣] لقـد اعتدت هـذه المستويات فيضانات محلية ولا تمثل اثار الطوفان العظيـم مـن ذلـك نخلص الى ان التنقيبات الأثارية التي قام بهـا (سرلينارد وولي) في (اور) و « الطبقة الصلصال » التي عثر عليها لا يمكن ان تدل على ، القطع ، على انهـا من مخلفات (الطـوفان) العظيـم الوارد ذكـره في الكتب المقدسة • انني اعتقـد ان الاساطير القديمـة السومرية والبابليـة والآشورية التي ذكرت ان طوفانا عظيما حدث في الدنيا المعروفة لديهم انما يسترجح تفسيره على أحد الاوجه التالية :

١ ـ ان مدنا من مدن العـراق القديمـة دهمهـا فيضان عظيم اهلك الحـرث والنسل وتناقلت خبره الاجيال ، واتسع امره في اذهانها ، والخيال الشرقي منسرح بطبعه ، حتى انتهى الى الصورة التي تعكسها الاساطير ، ويتلمس اثرها في (العهد القديم) •

٢ ـ وقد يكون هذا الفيضان العظيم مسبب

---

(٢١) تذهب الاساطير السومرية الى أنها من مدن ما قبل الطوفان وهي من اقدس المـدن السومرية القديمة ، بعد (نيبور : نفر) وموقعها الحالي (ابو شهرين) •

(٢٢) تل الاحيمر اليوم يمثـل موقعها ، والتل هو البقية الباقية من زقورة (اينر كورمه : الدار العجيبة أو الموطن المشهور) ، وتعـود الزقورة الى هيكل ايلبابا ، اله الحرب وزوجه عشتار •

(٢٣) تقع شوروباك الان في قفريباب على بعد ٣٠ ميـلا الى الشمال الشـرقي من اوروك وموقعها يسمى (قاره) وقـد اجرى كل من (كولدواي) و (اندره) و (نولدكه) تنقيبات فيها استغرقت الفترة الزمنية الكائنة بين ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ •

عن فعل (الخليج) ، نتيجة اندفاع مائه الى الشمال بتظافر المد العالي والاعاصير حتى غمر مساحات كبيرة من العراق الجنوبي وخرب مدنه ومزارعه ، واهلك خلقا عظيما من ابنائه ، ثم اخذت الاجيال المتعاقبة تروى خبره جيلا اثر جيل وهو يتضخم ويتسع ، شأنه ، بالخيال المنسرح الذي المعنا اليه •

على ان هاتين الفرضيتين لا يمكن ان تفسرا ، على الوجه القاطع اللاحب ، (القصة السومرية ـ البابلية) ولا (القصة التوراتية) المتعلقة بـ (الطوفان) وذلك بسبب من الحقيقتين التاليتين :

١ ـ ان الاساطير السومرية ـ البابلية تعزو (الطوفان) الى فعل المطر الهتون الدائب لا الى فعل الانهار •

٢ ـ وان اسطورة الفيضان ليست حكرا على ما تناقلته أجيال بلاد ما بين النهرين ، فثمة أساطير كثيرة أخرى شاعت في كثير من بلدان العالم تتحدث عن فيض عظيم اهلك الحرث والنسل أيضا •

وعلى ذلك ليس أمامنا الا تفسير قصة (الطوفان) على احد هذين الوجهين :

١ ـ اما ان تكون (القصة) أسطورية محضة ابتدعها أناس فطريون وأرادوا من ورائها تغطية حدث عظيم في الماضي •

٢ ـ أو ان الطوفان حدث حقا ولكن في فجر ما قبل التأريخ ولم يتحقق آثاريا بعد[٢٤] • لقد لاحظ الانسان في العراق فعل المطر الهتون ذا الوقع الشديد فتناقلت الاجيال ذلك ، جيلا اثر جيل عن طريق الرواية الشفوية ، بطبيعة الحال ، ثم تجمعت قصصه في قصة كارثة اسطورية واحدة •

ومما يؤيد ان الذي يخلق أسطورة كهذه هو رغبة الانسان في تفسير الحوادث الطبيعية التي تنزل به وتذيقه العذاب وردها الى غضب « الغيبيات » التي لم يستطع عقله البدائي استكناهها ، فزعم وجودها ثم نسب اليها ما لم يستطع تعليله • ومما يؤيد ذلك ان (قائمة الملوك السومرية) تقول : ان الملكية ، بعد الطوفان « خفضت من السماء » وهذه المرة كان مسرحها (كيش) • فالالهة التي غضبت على الانسان ، ونكبته بالطوفان ، جادت عليه بملوك من السماء • وعن « سلالة »[٢٥] ملوك كيش الاولى نلحظ ان الاساطير لا تزال تلعب دورها ، اذ فيها ٢٣ حكما ، كل حكم يستطيل بمعدل ١٠٠٠ سنة • واذا ما حذفنا اسما واحدا من تلكم السلسلة ، ـ والظاهر ان الكاتب لم يستطع الى قراءته سبيلا ، وبعد ان جمعها من رقيمات عتيقة ـ ، فاننا نلحظ ان من بين الـ ٢٢ ملكا : ١٢ يحملون أسماء سامية ، أو ألقابا سامية من امثال : (كالبوم : كلب) أو (كالومو : حمل) أو (زقاقيب : عقرب) وهذا يدل على اختلاط

---

(٢٤) راجع :
George Roux (Ancient Iraq Chapter 7)

(٢٥) يلحظ جورج رو ان (سلالة) في تأريخ بلاد ما بين النهرين لا تعني (اسرة ملكية) ولكن سلسلة من الملوك التابعين على حكم (دويلة ـ المدينة) لمدة من زمان • ولا تذكر قائمة الملوك السومريين الا الاسر التي حكمت ، واحدة تلو أخرى ، على أرض سومر كلها • المصدر السابق •

السومريين بالساميين بعـــد (عهـــد الطـوفان) مباشرة •

المضمون الادبي لـ (قصة الطوفان) في ثقـافة شعوب العراق القديمة :

جـرى بعض نقـــدة الادب عـــلى تمييز (القصص : Legends) عـــن (الاســـاطير : Myths) ، وهم يعرفون الاولى بارتكانها الى حوادث معينـة ، ووقائع حقـة ، صيغت في قالب روائي ، ويضربون الامثـال عليهـا : الالياذة والاوديسة عند الرومان ، و (قصة الطوفان) في (ملحمة كلكامش) عند شعوب بلاد مابين النهرين القديمـة • أما (الاساطير) فتعرف بانهـا ثمـرة الخيـال الانساني الصرف اصطنع لتفسير بعض القضايا الوجودية ، ومنهـا (اسطورة الخليقـة) عند شعوب العراق القديمة ، و (قصة الطوفان) عند الاغريق •

والنقدة هؤلاء يذهبون أيضا الى ان السمة المميزة لانتاج شعوب العراق القديمة الادبي هو انه (شعري) و (اسطوري) ، وباستثناء القليل منه ليس هو بالفلسفي ولا العقلاني •

ولتوضيح ما يذهبون اليه نقول : اذا لم يأت دجلة في سنة ما ، بماء وفير فهذا مصور في انتاجهم الادبي : « ان النهر ابى ان يرتفع سواء أكان ذلك بسبب غضبه ، أو بسبب غضب الآلهة ، وعلى ما عللّوا به حدوث الطوفان عفويا ، أي ان مرد ذلك لا الى شـــح في الثلـــوج أو انحباس في المطر • ولهذه القضية واقعة معينة دالة موضحة ترويها رقيمات القوم : لم ترتفع ، ذات مرة ، مياه دجلة ، في عهـد (كودية) ، لذلك قصد هذا المعبد وبات فيه ليلته يستلهم الآلهة لتدله على السبب ، فظهر لـه الاله في الحلم ـ ومن عادة تلـكم الشعوب استحصال التوجيه الالهي عـن طريق الاتصال بالالهة في الاحلام ـ فظهر لـه الاله بطريقة لم يستطع الى تعليلها سبيلا ، لذلك لجأ على العادة المتبعة الى الكهنة ، ففسروا له حلمه بأن الاله (تنكرسو) يروم منه أن يبني معبـدا جديدا ، ففعل !

هـذا وان (قصة الطوفان البابلي) لتعكس تأثير ديانة قـدماء العراقيين في انتاجهم الادبي ، فالآلهة تشارك البشر في الملاحم ، وهي شخوص في القصص والاساطير ، كما انهـا تعكس كيف يغـدو الملك بطـلا اسـطوريا ، واعني بالملك : كلكامش الذي يؤلف خبر الطوفان جزءا من (ملحمته) • قلت انـه : ملك وازيد عـلى ذلك فأقول ان اسمه ورد في ثبت ملوك الوركاء ، في عهـد سلالتها الاولى والتي لا يعـرف الباحثون ـ الاثاريون أكثر من أسماء ملوكها • ان (ملحمة كلكامش) التي تؤلف (قصة الطوفان) جزءا منها تعد اطول ملحمة شعرية في الادب البابلي ، وقد تكون قصة الطوفان أصـلا موضوعـا مستقلا ثم أدمجت في ملحمة كلكامش ، اذ جاءتنا عنـــه روايات سومرية أخرى • ونستطرد فنقول : ان (قصة) من ـ (قصص الطوفان) وجدت عند جل الشعوب والاقوام حقـا قيل انـه وقع في ماضيها الموغل في القدم ، ومن استقصى ذلك وجد ان مثل هـذه القصـة شائعة في أرجاء آسية ، وجزائر المحيط الهادي ، والقارتين الامريكيتين : الشمالية والجنوبية ، ولكنهـا قليلة في اوربة وأقـل من القليل في افريقية • وهـذه تختلف عن قصـة الطـوفان البابلي في كون الاخيرة مرتكنة الى ان

(طوفانا عظيما) وقع في مطاوى تاريخ بلاد ما بين الرافدين القديم حقا وانتقل خبره ، عن طريق الرواية الشفوية ، فاضيف اليه أشياء وحذفت منه أشياء جيلا فجيلا • ان (قصة الطوفان التوراتي) ، على ما ذكرنا ، تشبه (قصة الطوفان البابلي) •

ونسترجح لذلك ان مصدر القصتين واحد ، اعني طوفانا حدث في القسم الجنوبي من العراق ، في بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، (عهد جمدة نصر) ، لقد ورد ذكره كحد فاصل في اثبات الملوك السومريين : فثمة ملوك قبله وثمة ملوك بعده •

ويلحظ أن فحوى ومحتوى قصة الطوفان هو (نزعة الاثم) وما تجره من خطايا عرف بها البشر ، ورغبة الحد منها على يد الالهة التي ترقب ما يرتكبه البشر بعين يقظة ساهرة لتصحح اخطاءه وبذلك يعود عهد الصلاح بعد انتشار الفساد ، وهذا المضمون تجده في كثير من القصص والاساطير الانسانية • وهنا يلعب الخيال المنسرح دوره الكبير في نسج القصة ، ولا ادل على ذلك من ان عمل اوتو نبشتم العبد الصالح ، وبناءه الفلك ، وحشره نماذج من المخلوقات فيه ، انما اريد به النجاة من نتيجة غضب الآلهة على البشر وارسالها (الطوفان) • وان عمله الصالح ذاته هو الذي رفعه الى مرتبة الآلهة وكتب له الخلود السرمدي •

رأينا ان (قصة الخليقة) و (ملحمة كلكامش) ـ وكلاهما تتناولان (الطوفان) عرضا هما الملحمتان الرئيستان في الانتاج الادبي لشعوب بلاد ما بين النهرين القديمة ، ونضيف الى ذلك : انهما لم تظهرا بالشكل الخالد (الكلاسيكي) الا في (عصر حمورابي) ، وعنده كتبتا باللغة الاكدية ، وان لم تعد ما الاشارة الى ان جذورهما ممتدة الى العصر السومري ، على التحقيق •

يقول مورتكات ما محصله[٢٦] : « وبينما تشكل ملحمة كلكامش انتاجا فنيا شعريا، وبأكثر من افصاحها عن وثيقة دينية ـ ان امكن في الشرق الفصل بين الامرين ـ تكون (ملحمة الخليقة) اقرب الى الادب الكهنوتي الفلسفي الديني • انها قصة التكوين البشري الرسمية المعتبرة لدى الحكومة ، وعلى هذا الاساس تقوّم روحيا في كل عصر • ان (ملحمة الخليقة) وثيقة ذات خطر كبير ، باعتداد تأريخ العصر ، ذلك انها تدلنا على تنظيم آلهة العالم الاكثر قدما وطريقة عبادتها على وفق ما كانت ترتأيه الحكومات القائمة ، كما ترينا تكوين العالم وطريقة حكمه وتدلنا على طريقة الاعمار والاقدار ، وأخيرا تعلمنا كيف خلقت البشرية واسست الملكية • ان (ملحمة كلكامش) صنيع شعري يسمو على الزمان وهي أقدم ملحمة بطولية في العالم ••

ومن حيث التركيب مثالا يحتذى في الملاحم، ومن حيث الموضوع تتناول أيضا المشكلة الازلية التي تهم الجنس البشري أي : مشكلة الحياة والممات ، وبالتالي جدوى الوجود الانساني ، أو عدم جدواه ، ومن ثم خلق وفناء الانسانية على أيدي الآلهة •

ان المشكلة الرئيسية التي تدور حولها

---

(٢٦) تاريخ الشرق الادنى القديم ـ تأليف انطون مورتكات تعريب توفيق سليمان • وعلي أبو عساف وقاسم طوير ص ١١٥ •

ملحمة كلكامش هي بلوغ مرتبة الحي الذي لا يموت وذلك بعد التعرف على الموت » •

وبصدد النقطتين الاخيرتين نقول :

ان (اوتا ـ نبشتم) في (ملحمة كلكامش) هو الانسان الوحيد الذي انقذه (ايا) ، بدافع العاطفة على الجنس البشري من (الطوفان) ، وزوده بـ (عشبة الحياة) الخالدة •

« ذلك انه قال لـ (كلكامش) :

لا يصد الموت المكروه

انبني ، ها هنا ، بيتا على الدوام

انبقى هنا على الدوام

انتآخى هنا الى الابد » •

وكان عطف (اوتا ـ نبشتم) ـ نوح البابلي ـ على (البطل) حين زوده بـ (العشبة العجيبة) التي تخلد الشباب ، الا ان افعى سرقتها منه في أثناء الرجعى • وهكذا عـاد (البطل) الى (اوروك) خائبا ، بعد ان لقي في مسعاه نصبا ، ليجد في (صرحه الكبيرالسرمدي) عزاءا ، واعني به (سور المدينة) الذي بناه ، مؤمنا بان عمل الانسان هو اخلد من الانسان ، اخيرا •

وثمة ملحظ عن (مجمع الالهة) الذي امر بتدمير الجنس البشري (الطوفان) ، على ما مر بنـا :

لقد كان هذا (المجمع) مؤلفا من عدد كبير من الآلهة المتجانسة المتوافقة يمثل بعضها قوى الطبيعة والآخر الكواكب ، ومنها ما يخص المقاطعة أو المدينة أو الاسرة • كما انها كانت تمثل قوى الحياة والممات واسرار الكون ايضا وانها مدبرة اقدار البشر • وكانت مكانة كل (اله) في (مجمع الآلهة) تابعة لوضع دويلته ، فخطر (انين) و (نانا) مثلا كان يرتفع وينخفض تبعـا لارتفاع اهمية (اور) أو (اوروك) وانخفاضها • كانت سلطة هذه (الآلهة) تشمل الارض والسماء على حد سواء ، منذ فجر تأريخ العراق القديم •

وثمة (الحوظة) أخرى بشأن الملحمتين الخالدتين أيضا : فمن (كلكامش) نستخلص ان شطرا من رقيماتها ، في الاقل ، يعود الى العصر البابلي القديم ، على حين لا معدى عن ان يكون بطل (ملحمة الخليقة) من (العصر السومري) ، سيد العالم ، وخالقه (انليل) اله نيبور ، وما كان هذا الا اله بابل المحلي • ومنذ أصبح الاخير اله امبراطورية نجده يحتل مكانا عليا ، كموجه للعالم طرّا •

قصـــة (الطوفان) العبرية(*) سليلة قصـــة (الطوفان) البابلية :

المعروف ، على القطع ، ان قصة (الطوفان)

(*) **كلمة عبراني** Hebrew ذات أصل عريق ، **وقد** اطلقت في (سفر الخليقة ١٣/١٤) **على ابراهيم** ، فلا معدى عن أن تكـون اسماً عشائريا • وعلى الاعتقاد الشائع انها مشتقة من الاسم (عبر) وهو اسم أحد اسلاف ابراهيـم نفسه ، لذلك فهو يرجع الى عهد سبق زمانـه بمدة طويلة ، انه السلف السادس من اسلاف ابراهيم • ان الاسم عبيرو Habiru **هو الاسم** عبراني : Hebrew سواء بسواء • ان الاسم (يهود) اعـم من اسـم (عبرانيين) أو (بني اسرائيل) لان الاولى تشمل (العبرانيين) ومن اتخذ اليهودية دينا وهو ليس منهم • امـا بنو اسرائيل فيراد بهم الاسباط الاثني عشر الذين اخرجوا من مصر الى فلسطين ـ والاسباط عند اليهود كالعشائر عند العرب سواء بسواء • ولقد الف ١٠ من هؤلاء الاسباط مملكة اسرائيل اما

العبرانية على ما وردت في (سفر التكوين : Genesis) جرى تدوينها ، على غرار تدوين ال (الاسفار الخمسة : Pentateuch)[٢٧] ، وعلى ما وصلت الينا بعيد سبي اليهود في بابل ، وان كنا لا نعرف تاريخ تدوينها على التعيين • وما كان مدونوها اصلاء في ذلك ، ولعل هدفهم الوحيد كان تجنب هذه الاصالة عينها • ان (هدفهم الاول) كان جمع وتنظيم الكتابات المقدسة التي تختص بالجنس اليهودي في اسفار مدونه ، بالاقتباس من المصادر الشفوية •

لذلك فان كلا من (سفر الخليقة) و (سفر الخروج) حديث ، وان كانت مصادرهما قديمة • لقد تجلت هذه الحقيقة في القرن التاسع عشر الميلادي : فدرّاس (العهد القديم) اثبتوا ان الاسفار الخمسة « ليست من الوحي الذي نزل على موسى (ع) ـ وهو ادعاء لم يرد صراحة فيها أيضا وان نسختها الحالية ليست الا تدوينات الكتاب اليهود ، اثر السبي البابلي ، أي بعد قرون كثيرة من الحوادث التي تدونها ، وتزعم حدوثها • والذائع المعروف الشائع ان هؤلاء الكتاب لم يرتكنوا الى مصادر خطية ، لانها لم تكن ميسورة أصلا وان الكتاب الذين دونوا تلكم الاسفار لم يكونوا الا دعاة دينيين ، ممن أرادوا دعم ارائهم بارجاعها الى ماضي شعبهم القديم ، وان التواتر كان معينهم الاول الفذ • ان الارتكان الى مثل هذا التواتر ، بطبعه ، يبين صحة فحوى ومحتوى ما دونه اولئك الكتاب ، ولاشك ان قد اضيفت الى (الحوادث) أشياء وزوقت عبر مراحل انتقالها من فم الى فم • وهكذا نجمت طائفة من النقد قبيل مختم القرن التاسع عشر تنسف الاساس التأريخي لكل القصص الواردة في (اسفار العهد القديم الاولى) تقريبا[٢٨] •

لكن الذي يعنينا من ذلك كله هو (قصة الطوفان) • انها ، على ما وردت في (سفر الخليقة) ، تحفظ لنا الشطر الاكبر من (النسخة البابلية) • ان الكتاب اليهود لم يحفظوا لنا القصة حسب وانما ألفاظها أيضا ، وبكل أمانة غالبا ، ان قصة الطوفان العبرية والقصة البابلية التي نسلتها تتسمان باللون المحلي ، ومن الدلائل على ما نقول :

١ ـ طلاء (السفينة) بالقار ، وهو من منتوجات بلاد ما بين النهرين منذ القديم •

٢ ـ ضحالة الماء النسبية ، اذ لم يزد عمقه على ٢٦ قدما ، ومع ذلك اغرق جميع الارضين !

٣ ـ واحتفاظ النسخة العبرية بصيغة الجمع لـ (الآلهة) ، والدالة على عقيدة تعدد الآلهة البابلية الاولية ، ومعلوم ان (الوحدانية كانت عقيدة العبرانيين المتأخرين) •

السبطان الباقيان فقد كونا مملكة ـ يهودا • راجع قاموس الكتاب المقدس (١/٩٣ وما بعدها) •

(٢٧) الكلمة يونانية النجار مركبة من كلمتين هما : Penta على معنى (خمسة) و (Teuchos) على معنى (اسفار) • والاسفار الخمسة هي : (التكوين) و (الخروج : Exodus) و (اللاديين : Lanticus) و (العدد Numbers) و (التثنية Deuteronomy) • انها ، على رأي العبرانين القدامى هي الاسفار المنزلة على موسى ، ثم توسعوا فاطلقونها على الاسفار التي تكون (العهد القديم) : وليس في القرآن الكريم ما يحدد الاسفار او يفصلها •

(٢٨) راجع :
Sir Leonard Woolley: Abraham p. 20.

صحيح ان الفارق بين القصتين ، روحيا ، كبير ، اما ان (الاولى) نسلت (الثانية) فهذا صحيح لاشك فيه أيضا • لقد عاش اليهود ، بين البابليين أيام السبي ، وتأثروا بدينهم تأثرا عميقا ، وشأن الدين في ذلك كشـأن الافكار الاجتماعية • ان القـــرن السادس ، قبل الميلاد ، وعهـد السبي البابلي منه بخاصة ، هـو الذي عرّف اليهـود بقصص الخليقة والطوفان ، وما كانوا ليعلموا عن ذلك ، قبلـه ، شيئا • ومن المحقق ان الافكار الدينية المضمنة في هذه (القصة) ، على ما وصلت الينا ، تعود الى زمن يلي السبي ، لان تدوينهـا النهائي حدث خلال السبي أو بعده وثمة ملحظ آخر يتصل ببطل قصة (الطوفان) البابلية، وهو على ما ذكـرنا يدعى : اوتا ـ نبشتم ، وبطـــل قصـة ـ (الطوفان) العبرانيـة : نوح • ان العـــلاقة بين الاسمين ، على مـا هـو بيّن ، معدومة • وعلى الرغم من ان في (العهد القديم) تفسيرا للاسم : (نوح) ، لكنه لا يعدو لعبا على الالفاظ ، ومصطنعا ، انه محاولة لتفسير ما لا معنى له حقا[٢٩] • ولا يرد الاسم (نوح) في أي صنيع يهودي آخر ، سواء أكان ذلك على انفراد ، أم بالتركيب مـع أسماء اخر • ولسائل ان يسأل : لم اذن الاسم (نوح) في قصة الطوفان العبرانية يا ترى ؟ يجيب عن ذلك (الاب باروز Father Burrows)[٣٠] في الاجزاء الحرانية من (اسطورة الطوفان) يرد اسم البطـــل بصيغة نحموليل Nahmolel [٣١] او نا حمو ليل Na ah-mu?-liel' وان هذا الاسم ، اما بالاشتقاق أو بالاختصار ، وعلى غرار ما يحدث في العبرانية (وعلى مثال لما حدث لاسم الملك الاشـوري تيغلات بيليصير الذي أصـبح ابول)[٣٢] فأسم نا حمو ليل ذو رابطة ، بالاسم (نوح المعروف) • ومن المفيد ان نقول ان اللهجة « الحرانية » ، التي كتبت بها الرقيمة ، كانت لغة التخاطب في منطقة الشرق الاوسط كله ، ومنها منطقة حران نفسها • وعاش في حران ابراهيم ، و (تارح) وجاءت (ربيكا) منها أيضا ، ولبث فيهـــا يعقوب ١٤ سنة على ما تقـــول المصـادر العبرانية(*) • فلو كانت (قصة الطوفان) فيهـــا شائعة ، على ما نعلم نحن الآن ، وان اسم بطلها يبدأ بهذه الحروف ، الا يستتبع ذلك ان النسخة

---

(٢٩) راجع :
Sir Leonard Woolley : Abraham p. 175

(٣٠) Notes on Harrian, in J.R.A.S. 1925. pp. 281-4.

(٣١) لا تعـرف طريقة نطـق الاسماء في السومرية والبابلية تماما ف (نحموليل) قد ينطق على وجه قريب من نطق اسم (نوح) ـ وهو في السامية نح Nuh : راجع :
Sir Leonard Woolley : Abraham p. 176 (foot-note).

(٣٢) في اورفه (اديسا القديمة) الكائنة قرب نصيبين (حران القديمة) جامع فيه حوض مليء بالسمك هو : (سمك ابراهيم) والعامة تجله كثيرا وتحرص على عدم اصطياده ويذهب (التواتر المحلي) الى ان (ابراهيم) عندمـا هاجمه جنود نمرود دعـا الله ان ينجده فامده بعون من الجند ، المشاة والخيالة ، خرجوا من الماء وما ان استرجعوا ما نهبه جنـود نمرود وولوا هاربين ، الا عادوا الى البركة سمكا ..

وهذا يدل على ان معتقدا كان شائعا بأن ابراهيم ثوى فيها • الشبه بين اسمى (اورفه) و (اور الكلدان) هو السبب في وضع الاخيرة في الخوارط التأريخية محل اورفه .

راجع :
Sir Leonard Woolley, Abraham p. 591-60.

العبرانية لقصة الطوفان قد استمدت من مصادر شمالية • وعلى ذلك يلحظ الاب باروز ان اسم (جبل اراراط) ، الذي لا يظهر في النسخة البابلية ، ويظهر في النسخة العبرانية باعتداده الجبل الذي استوت عليه (السفينة) ، وهو أعلى جبل في تلكم المنطقة وأول ما يظهر من اليابسة عند انحسار الماء ، وهذا دليل آخر على استمداد القصة العبرانية من مصادر شمالية أيضا •

وجاء ابراهيم على ما ورد في (العهد القديم) من (اور) فلا معدى عن ان يكون قد سمع قصة الطوفان السومرية فيها ، انها من قصص (الخليقة) و (التكوين) التي نقلها ابراهيم من (وطنه الاول) وكانت القصة على شكلها الاولي الوارد في الرقيمات المسمارية ، وبعد تطور بطيء ، وادخال أشياء كثيرة عليها ، اتخذت الشكل الذي هو الآن بين أيدينا •

وملحظ آخر أيضا : ان الادب البابلي ، شأنه كشأن الاديان القديمة قد اثر فيه الدين ومن ذلك اشراك الالهة في الملاحم على ما ورد في (قصة الطوفان) • ومعلوم ان تقديم الضحايا والقرابين كان جزءاً لازما من الديانات القديمة • ان آلهتها ، على ما كانت تتراءى لاتباع تلكم الاديان ، عرفت الجوع والظمأ ، وعلى غرار ما كان يعرفهما الانسان ، وكان لزاما على (عابديها) ان يقدموا لها الماء والطعام • ان (قصة الطوفان البابلية) تروى كيف ان أبناء الجنس البشري عندما دهمهم الطوفان ، جاعت الآلهة العليا ، وذلك لانها عدمت القرابين التي كان البشر يقدمها لهم يوميا ، وعلى ذلك ما ان غادر (اوتا ـ نبشتم) السفينة ووضع رجله على اليابسة (ان السفينة لا تجرى على اليبس) الا كان أول شيء فعله هو تقديم الضحايا ، وسرعان « ما شمت الآلهة النكهة الطيبة وتجمعت على غرار ما يتجمع الذباب على القربان • »

ان النسخة العبرانية للطوفان تعدم هذا « التشبيه الساذج » ، لكن نوح دأب على بناء المذبح وتقديم « النذور المشوية ، من كل حيوان نظيف ، ومن كل طير نظيف » والرب يدأب على شم النكهة الطيبة « ويقسم بانه لن ينزل الضربة القاصمة بكل شيء حي » • لا عبادة من دون تضحية ، وهذه اثارة من تلكم العهود • وما عزم عليه ابراهيم من تضحية ابنه اسماعيل للرب ، منها ، ما الى الشك في ذلك من سبيل •

من ذلك يتبين : ان قصة (الطوفان) نجمت من الصنيع الادبي : السومري ـ البابلي ـ الآشوري ، فكان لها نظير في (العهد القديم) • فيها (السفينة) وقد طليت بالقار ، منتوج بلاد ما بين النهرين منذ القديم ، وفيها (رجل) واحد معين ، وان اختلف اسمه هنا وهناك ، وقد فسرنا ذلك فيما مضى ، انذرته الآلهة بان (طوفانا) سيغمر الارض وشيكا • ثم فتحت أبواب السماء بماء منهمر واغرق الماء كل من كان على الارض ، واستوت السفينة على (جبل) اختلف اسمه ، هنا وهنا ، وقد فسرنا السبب فيما مضى أيضا ، ثم امرت الآلهة السماء بان تقلع ، وغيض الماء ، وارسل ذلكم الرجل ثلاثة من الطيور • ثم يخرج من السفينة الناجون ليقدموا القرابين • ان الشبه بين ما ورد في المصادر السومرية والبابلية والآشورية والعبرانية تجعل الأصل واحدا •

وبطبيعة الحال هناك اختلافات ثانوية ، ففي النسخة البابلية تعدد للالهة ، واحدهم هو الذي قرر ان يطلق الطوفان والآخر هو الذي افضى بسر ذلك ، وفي النسخة البابلية ما يفيد بان الآلهة بعد اطلاق الطوفان امتلأت منه رعبا • لكننا لا نستطيع ان نقر ان ذلك كان شأن (جيهو فاه : يهوه) أيضا • ان عشتار ، آلهة الحب تجبه الاله العظيم الذي كان المسـؤول الاول عن الطـوفان ، وتوبخـه بمرارة على ما جنت يداه ، فهي تفيد بان ليس من حق الاله تدمير الجنس البشري كلـه ، اذ قـد يكون البعض منهم في عداد الطالحين ، لكن من بينهم من هو في عداد الصالحين أيضا • فان اخطاء البشر ففي مقدور الآلهة ان توقع عليهم العقاب ، أو تصيرهم جياعا ، أو تطلق عليهم الاسود للاقلال من عدتهم ، لكن طوفانا عاما توقع امر كان من الواجب الا يطلق عليهم ابدا • ان هذا الانكار يبلغ مبلغا لا يرقى اليه ما ورد في العهد القديم : ف « ذو الخطأ مسؤول عن خطيئته » أو بعبـارة أخرى : (ألاّ تزر وازرة وزر اخرى) • ولم يفهم اليهود هذه الحقيقة أبدا[٣٣] •

مصادر البحث

1. Old Testament — Book of Genesis.
2. Sir Leonard Woolley Excavations at Ur.
3. Sir Leonard Woolley: Abraham.
4. Mackenzi: Myths of Babylonia and Assyria.
5. Pinches: The Religion of Babylonia and Assyria.
6. King: Babylonian Religion.
7. The Old Testament in the Light of Histoucal Records and Legends of Assyria and Babylonia.
8. Encyclopaedia of Modern Knowledge Vols. I and II.
9. Hutchinson, R.W.: A Century of Explorations at Nineveh, London, 1929.
10. Encyclopaedia, International, Ezra and Ezra, Book of.
11. Seton L'loyd: Twin Rivers.
12. George Roux: Ancient Iraq.
13. Chiera: They wrote on clay.
١٤ـ مقـدمة في تاريخ الحضـارات القديمة ـ طه باقر •
15. Ancient Near Eastern Texts.

(٣٣) راجع :
Chiera: "They wrote on clay pp. 130-131.